مجلة تداوليات ISSN :2992-0795
المجلد: الثاني 02 / العدد الثاني ديسمبر2024 / ص ص: 158- 167

مفهوم البيان ووظائفه عند الجاحظ

The concept of Albayān and its functions according to Al-Djāḥiẓ

د. محمود طلحة
قسم اللغة والأدب العربي-جامعة الأغواط
m.talha@lagh-univ.dz

ملخّص:

تتميّز كتابات الجاحظ بصورةٍ عامّةٍ تعكس الموسوعية والإحاطة بالأخبار والثقافة التي فرضها عصره، لكن من جانبٍ آخر من النظر يمكن أن يكتشف القارئ لبعض كتبه بعض التصوّرات المعرفية التي ترتقي أن تكون علمًا قائمًا بذاته، وتعدّ مباحث البلاغة أبرزَ تلك المواضيع، ومنها أيضاً مفهوم البيان، لذلك نسعى في هذا المقال أن نبرز تصوّر الجاحظ لمفهوم البيان في أوائل استعمالات هذا المصطلح، ثمّ نسعى إلى بيان خصائصه، وهي الفصاحة وطلاقة اللسان، والبلاغة، والنظم والتأليف، والإيجاز والإشارة، لننتقل بعد ذلك إلى إبراز التصور الحجاجي الإقناعي لمفهوم البيان عبر وظائفه، وهي الفهم والإفهام، والإقناع والتأثير، ونعتمد في قراءتنا لنصوص الجاحظ استنطاقها أحياناً لكن في قدر ما تحتمله، مع بعض الإشارات إلى الدراسات السابقة.

الكلمات المفتاحية:

-البيان -التواصل -البلاغة -الفصاحة -طلاقة اللسان -الإيجاز -الإشارة -الفهم والإفهام -الإقناع -الحجاج.

Abstract :

Al-Djāḥiẓ's writings are generally characterized by an encyclopaedic image that reflects a comprehensiveness of the news and the culture imposed by his era. However, from another perspective, the reader of some of his books can discover in them some cognitive concepts that rise to the level of being a science in itself. The most prominent of these topics is the topic of rhetoric, and among them is also the concept of "Albayān" (rhetoric). Therefore, in this article, we seek to highlight Al-Djāḥiẓ 's concept of rhetoric in the early uses of this term. Then we seek to explain its characteristics, which are: Alfaṣāha "eloquence" and fluency of the tongue, rhetoric, organization and composition, brevity and allusion. We then highlight the persuasive argumentative concept of rhetoric through its functions, which are understanding and making others understand, persuasion and influence. In our reading of Al-Djāḥiẓ's texts, we rely on interrogating them sometimes, but to the extent that they can bear, with some references to previous studies.

Key words:

Rhetoric - Communication - Eloquence - Fluency - Brevity - Allusion - Understanding - Persuasion - Argumentation.

ننطلق في هذا المقال من تصوُّرٍ يكاد يكون موافقاً لكثير من المفاهيم التي تطرحها التداوليات المعاصرة ولسانيات الخطاب، من خلال وصفها للكفاءة التبليغية والتواصلية للمتكلّمين، ويبدو لنا من الضروري قبل التطرّق إلى أهم

خصائص الحجاج "الجاحظي"، أن نتطرّق إلى بعض المفاهيم التي ترتبط به في التراث العربي، فقد وجدنا بعض النصوص التي توضّح بعض تلك المفاهيم لعلّ من أبرزها نصوص الجاحظ، وأهمّها مفهوم البيان، فما هو البيان لدى الجاحظ؟، وكيف نظر إليه على أنّه خطاب متميّز؟، وهل يمثّل البيان مفهوماً تفسيرياً أو نوعاً خطابياً؟.

1- مفهوم البيان:

يمكننا أن نقرّ في البدء أنّ مفهوم البيان لدى أبي عثمان الجاحظ (ت255ه) مفهوم يحكم تصوّره اللغوي والعقدي والفكري والمعرفي في كلّ كتبه ورسائله، لذلك رأينا أنّه لا يخلو لديه من إنجاز غاية أكيدة ولصيقة به هي غاية الإقناع، وربما عاد هذا إلى تصوّره النفعي للخطاب البياني، لذا يمكن الانطلاقُ من قناعة مفادها أنّ كتب أبي عثمان تمثّل منظومة فكرية متكاملة، تتكامل مصطلحاتها، وتتضافر تصوّراتها، مؤدّيةً المفاهيم والأفكار، وقد ألّف أبو عثمان كتاباً أسماه" البيان والتبيين"، وهو كتاب يحمل أهمّ تصوّراته المتعلّقة بهذا المفهوم، وفيه نجد قوله في باب البيان :«قال بعض جهابذة الألفاظ ونقّاد المعاني: المعاني القائمة في صدور الناس المتصوَّرَة في أذهانهم، والمتخلِّجة في نفوسهم، والمتّصلة بخواطرهم والحادثة عن فكرهم، مستورةٌ خفية، وبعيدةٌ وحشية، ومحجوبةٌ مكنونة، وموجودةٌ في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضميرَ صاحبه، ولا حاجةَ أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلّا بغيره، وإنّما يُحْيي تلك المعاني ذكرهم لها، وإخبارهم عنها، واستعمالهم إيّاها، وهذه الخصال هي التي تقرّبها من الفهم، وتجلّيها للعقل، وتجعل الخفيّ منها ظاهراً، والغائب شاهداً والبعيد قريباً، وهي التي تلخّص الملتبس وتحلّ المنعقد، وتجعل المهمل مقيّداً والمقيّد مطلقاً، والمجهول معروفاً والوحشيّ مألوفاً، والغفل موسوماً، والموسوم معلوماً، وعلى قدر وضوح الدلالة، وصواب الإشارة وحسن الاختصار، ودقّة المدخل، يكون إظهار المعنى، وكلّما كانت الدلالة أوضح وأفصح وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع، والدلالة الظاهرة على المعنى الخفيّ هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه، ويدعو إليه ويحثّ عليه... والبيان اسم جامعٌ لكلّ شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنسٍ كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأيّ شيءٍ بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع»[1]، إنّ هذا النص الذي يبتدئ به الجاحظ باب البيان من كتابه يتكفّل بحمل أهم خصائص مفهوم البيان لديه، ويعدو الأمر فيه مجرّد التوضيح اللغوي إلى التحديد الاصطلاحي، إذ لا شكّ أنّه يحاول من خلاله التأسيس لمفهوم البيان، لذا وجدناه ينطلق من أساس لغويٍّ ذي علاقة وثيقة بمبحث الوجود الإنساني، فهذا الوجود لا يتقوّم في رأيه إلّا بوجود التعبير الذي يأخذ شكل البيان، وهو ما يطرح ثنائية واضحة ينطلق منها هذا التصوّر هي ثنائية المحتوى والتعبير، ويصبح البيان بهذا مفهوماً جامعاً لكلّ أنواع التعبير من دليل أو علامة تكشف عن المحتوى، وهذا ما يمحّضه لأداء وظيفة التواصل، ولعلّ هذا المشغل المتعلّق بأداء الوظيفة التواصلية هو ما جعل الجاحظ يقدّم تصنيفاً استقرائياً لكلّ أنواع البيان، فإذا كان البيان اسماً جامعاً لكلّ أصناف الدلالة، فإنّ هذه الأصناف حسب الاستقراء ستكون محدودة محصورة، وعلى هذا وجدناه ينطلق من تصوّر معرفي عامّ هو محدودية الأصناف الدالة (الأشكال التعبيرية)؛ وهو يعبّر عنها بالألفاظ باعتبارها الصنف الأكثر استعمالاً، في مقابل عدم محدودية المعاني والأفكار والمدلولات التي يراد التعبير عنها (المحتويات)، وهذا إذ يقول: «ثم اعلمْ حفظك الله، أنّ حكم المعاني خلاف حكم الألفاظ، لأنّ المعاني مبسوطة إلى غير غاية، وممتدّة إلى غير نهاية، وأسماء المعاني مقصورة معدودة،

[1] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1388/1968. ج1 ص75-76.

ومحصَّلة محدودة، وجميع أصناف الدلالة على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد:أوّلها اللفظ، ثمّ الإشارة، ثمّ العقد، ثمّ الخط، ثمّ الحال التي تسمّى نِصبة»[1]، إذن ففي مرحلة أولى من التحديد الاصطلاحي لا تمثّل اللغة إلّا جانباً من جوانب البيان، أو هي بمعنى أدقّ أحد أنظمة البيان، باعتباره اسماً جامعاً لكلّ الأنظمة السيميائية (Les systèmes sémiologiques)[2]، التي يقابل فيها الدليل مدلوله، هذا مع أنّ "لكلّ واحدٍ من هذه الخمسة صورةً بائنة من صورة صاحبتها، وحلية مخالفة لحلية أختها، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة"[3]، والمقصود ضرورةً بالصورة هو شكل الدليل في هذه الأصناف، ويتدعّم هذا النص بنصٍّ آخر في كتاب "الحيوان"[4]، وما يظهر في هذا النص ليس التأكيد على التعدّد الذي تأخذه أشكال البيان في أداء وظيفة التواصل، بل هو التأكيد على النوع الخامس المسمّى حالاً أو نصبة لديه، وهو نوعٌ يظهر به البيان بشكل مخالف للأشكال الأخرى، إذ هو كما يرى الجاحظ صنفٌ دالٌّ بواسطةٍ غيرِ الوسائط المعروفة، إذ يَفترِضُ من المرءِ جهداً معرفياً آخر هو الجهد العقلي الذي يستنبط الدلالات ويولّدها، وهذا التأكيد على دلالة النصبة، والذي نجد له أكثر من شاهد في كتابات الجاحظ؛ يقوم على أصل عقدي وكلامي مهمٍّ يتجلّى في دلالة المخلوقات على الخالق والآثار على المؤثّر، وهذا أصل لا يخلو منه أيضاً التصور الحجاجي لدى الجاحظ، إذن فالبيان في كلِّ أصنافه دالٌّ على المبين، وبذا لا تكون اللّغة إلّا إحدى الأصناف الدالّة.

إنّ تركيز الجاحظ على البعد السيميائي العامّ في تحديد مفهوم البيان، لم يكن ليشغله عن إبراز مزايا البيان اللغوي، باعتباره أبرز مظاهر البيان وأكثرها استقطاباً لتفكيره، وتفصيلاته المتعلّقة بالبيان اللغوي تأخذ أبعاداً كثيرة تتداخل فيها الوظيفة بالبنية، والوسيلة بالغاية، وتمتزج فيها التصورات العامّة والكلّيات الوصفية بالقضايا الجزئية والفرعية، على أنّنا يمكن أن نلتمس في هذه التفصيلات الانطلاق من فكرة أنّ البيان فنٌّ في القول، ربط الجاحظ بين هذا المفهوم وبين جملة مصطلحات يمكن أن نعدّها خصائص نوعية له، وأبرز تلك المصطلحات:

1- 1:الفصاحة وطلاقة اللسان:

وقد جمع الجاحظ لهذا المصطلح أبواباً وفصولاً من كتبه ورسائله، وبدأ به كتابه البيان والتبيين[5] فجمع فيه من الأخبار والآيات والدلائل ما يدعم وجهة نظره في أنّ البيان إفصاح وطلاقة لسان، وهو كثيراً ما يربط بين البيان بهذا

[1] المصدر نفسه، ص76.

[2] ارتبط المشروع السيميائي في تأسيسه باسم رائد اللسانيات الحديثة السويسري"فرديناند دي سوسير" ويقوم تصوره على وجود علم عام يهتم بدراسة أنواع العلامات وهو السيميولوجيا (la sémiologie) وتحته تندرج اللسانيات باعتبارها العلم الذي يهتم بدراسة العلامة اللسانية (le signe linguistique)، والأنظمة السيميائية التي أشار إليها الجاحظ تمثّل بحقٍّ إحدى أهمّ الأنظمة المعروفة والتي يمكن دراستها سيميائياً، للتفصيل انظر:

J. Dubois, Dictionnaire de linguistique, P425-426.

[3] المصدر نفسه والصفحة. نشير في هذا السياق إلى فكرة الفصل بين المعاني والألفاظ التي ينطلق منها الجاحظ في تأسيس نظريته البلاغية والنقدية وهو فصل ينبني على سبق المعاني في الوجود وتعبير الألفاظ عنها، ولهذه القضية أبعادٌ عديدة جِدُّ مُهِمَّةٍ في تصوّر الجاحظ لقضية البيان، انظر:د.حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس، منشورات الجامعة التونسية، تونس، ط1، 1981.ص169-170.

[4] أبو عثمان الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، مصر، ط2، 1385/ 1965، ج1 ص33-34.

[5] ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج1 ص1-74.

المفهوم وبين نقيضه، أي العيّ والحصر أو السكوت إضافةً إلى غيرها من العيوب التي يمكن أن توجد في صاحب الخطاب، وهي عيوب يمكن أن تصل إلى حدّ الآفات النطقية فتغدو كلّها عوائق في عملية الإبانة، يقول أبو عثمان:«وقال الله تبارك وتعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ لأنّ مدار الأمر على البيان والتبيّن، وعلى الإفهام والتفهّم، وكلّما كان اللسان أبْيَنَ كان أحمدَ، كما أنّه كلّما كان القلب أشدّ استبانة كان أحمد، والمُفهِمُ لك والمتفهّم عنك شريكان في الفضل، إلّا أنّ المفهم أفضل من المتفهّم وكذلك المعلّم والمتعلّم»[1]، إنّ هذا الربط بين أطراف العملية التواصلية دالٌّ بشكل كافٍ على ضرورة تبوّء كل طرف وظيفته، وهو تأكيد من جهة أخرى على إحدى خصائص البيان، غير أنّ المقاييس التي يستعملها الجاحظ في ضبط هذا المصطلح تتعدّد وتتمايز حسب السياقات كما أنّها تتداخل إلى حدّ كبير مع مصطلحات أخرى كالبلاغة والخطابة وحسن الاختيار والتلاؤم بين الحروف ممّا يختصّ بمقام المشافهة[2]، ويقدّم لنا الجاحظ النماذج لهذه الخاصّية ويبيّن أثرها في البيان من القرآن الكريم في ذمّه الحصر والعيّ وطلب سيدنا موسى عليه السلام من الله عز وجل حلّ عقدة لسانه لأداء وظيفة البيان، كما يقدّم لنا نموذجاً من عصره عن واصل بن عطاء إمام المعتزلة يحاول فيه أن يبيّن أثر الفصاحة في الأداء[3]، وليس الشاهد في رأينا ممّا ساقه أبو عثمان في جهد واصل بن عطاء لتجنّب لثغته، بل فيما يحمله من تأكيد على بعض خصائص البيان ووظائفه، فالفصاحة المقترنة بالجهاز النطقي عنصر فاعل في أداء الوظيفة وتمام آلة البيان.

1-2: البلاغة:

وهي مصطلح مرادف للبيان في كتب الجاحظ، وقد جاء في تعريفاتها ما يعدّ تعريفاً لخصائص البيان، من ذلك مثلاً إيراده لمجموعة من هذه التعاريف في البيان والتبيين[4]، على أنّ هذه التعاريف أيضاً تتعدّد فيها المقاييس التي تضبط المصطلح، وهي مقاييس متعلّقة في رأينا بمكوّنات الخطاب، وهي نفسها مكوّنات العملية التواصلية، وقد يجملها مثلاً تعريف ابن المقفع الذي ينقله الجاحظ على أنّه أحسن ما نقل في تعريفها، "وقد سئل ما البلاغة؟،قال: البلاغة اسمٌ جامعٌ لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سجعاً وخُطباً، ومنها ما يكون رسائل، فعامّة ما يكون في هذه الأبواب الوحيُ فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة..."[5]، فهذه أنواعٌ من الخطاب قد تتوافر فيها البلاغة من جهة كونها دالَّةً بثلاثة طرقٍ: وحْيًا وإشارةً وإيجَازًا، ونجد في بعض التعاريف الأخرى تركيزاً على الاختيار، والمقصود به اختيار الألفاظ الدالّة على المعاني، وقد ضبط الجاحظ هذا الاختيار بجملة من الضوابط لعلّ أكثرها وروداً هو الملاءمة السياقية، والتوسّط في الاختيار بين اللفظ الغريب الوحشي وبين العامّي المبتذل، يقول مثلاً: «وقال بعضهم، وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوّناه: لا يكون الكلام يستحقّ اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظَه، ولفظُه معناه، فلا يكون لفظُه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك»[6]، وقد نقل أبو عثمان أيضًا نصائح "بشر بن المعتمر" في

[1] المصدر نفسه، ج1ص 11-12.

[2] ينظر: د.حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص234.

[3] البيان والتبيين، ج1 ص14، لتكتمل العبارة ومعناها يقول أبو عثمان: "رام أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه وإخراجها من حروف منطقه، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه، ويناضله ويساجله، ويتأتى لستره والراحة من هجنته، حتى انتظم له ما حاول، واتسق له ما أمّل" المصدر نفسه، ص15.

[4] المصدر نفسه، ج1 ص88-97.

[5] ينظر: البيان والتبيين، ج1 ص115-116.

[6] المصدر نفسه، ج1 ص115.

تعليم الخطابة، ومن جملة تلك النصائح قوله بما يتعلق بالاختيار: «وينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكلّ طبقة من ذلك كلاماً، ولكلّ حالة من ذلك مقاماً، حتّى يقسّم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات»[1]، ويقترب هذا التأكيد على المقامات والأقدار في رأينا من مفهوم الملاءمة في الدرس التداولي الحديث، وهو مفهوم يسعى إلى تفسير ووصف "كيف يحدّد التداخل بين دلالة ملفوظٍ مّا وبين مقامه كيفيةَ فهم هذا الملفوظ"[2]. ولكنّ البلاغة أيضاً في بعض الحدود والتعاريف تطرح قضية النظم والتأليف وموافقته لأساليب النظم في الكلام العربي، وأبو عثمان يفتح بهذا المجالَ للقول في البيان باعتباره نوعاً من الخطاب الجميل أو بالمفهوم الحديث الخطاب الأدبي، وهو خطابٌ ذو طابع لغوي غير أنّه تنضاف إليه بعض الخصائص التي تميّزه عن غيره من أنواع الخطاب، ومن بين تلك الخصائص وصفه بالبلاغة، ويورد الجاحظ تعريف العتّابي بقوله: «حدّثني صديق لي قال: قلت للعتابي ما البلاغة؟ قال: كلّ من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ، فإنْ أردت اللسان الذي يروق كلّ الألسنة ويفوق كلّ خطيب، فإظهار ما غَمُضَ من الحقّ وتصوير الباطل في صورة الحق ...»[3]، فالخاصّية الجلية التي يحاول هذا التعريف إبرازَها هي في نظرنا خاصّية تحويل حقائق الأشياء عبر اللغة، وهي خاصّية لا تتوافر إلّا في خطاب بلغ الغاية في البلاغة وحاز على درجة عالية من الفن، ثمّ يضيف معلّقاً عليه بعد عدّة صفحات: «والعتابي حين زعم أنّ كلّ من أفهمك حاجته فهو بليغ، لم يعنِ أنّ كلّ من أفهمنا من معاشر المولّدين والبلديين قصده ومعناه بالكلام الملحون والمعدول عن جهته والمصروف عن حقّه أنّه محكوم له بالبلاغة كيف كان بعد أن نكون قد فهمنا عنه،...، وإنّما عنى العتابي إفهامك العرب حاجتك على مجاري كلام العرب الفصحاء...»[4]، إنّ هذا التركيز على خضوع الكلام للمواضعة الاجتماعية ليس متعلّقاً بالجانب القواعدي فحسب، وإنّما هو متعلّق كذلك بنظرية المناسبة والمواضع التي أشرنا إليها آنفاً، لذلك ارتبط فيما بعد تعريف البلاغة بأنّها مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وهي نظرية أكّدها البلاغيون بعد الجاحظ وأرسى دعائمها عبد القاهر الجرجاني عبر ما سمّي بنظرية النظم، وهذا يدعونا إلى بحث خاصّية أخرى من خصائص البيان هي النظم والتأليف.

1-3: النظم والتأليف:

وقد أبرز الجاحظ هذه الخاصية بمسلكين: مسلكٍ إيجابي يمدح فيه الاهتمام بالتماسك والتلاحم والائتلاف في الكلام شعراً أو نثراً، ومسلكٍ سلبي يذمّ فيه الاختلاف والتنافر والتعقيد، فمن أمثلة المسلك الإيجابي إيراده لتعريف الفرس للبلاغة بقولهم :«معرفة الفصل من الوصل»[5]، وإيراده تعليقاً على بيت من الشعر يصف التنافر: «قال وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء، سهل المخارج، فتعلم بذلك أنه قد أفرغَ إفراغاً واحداً، وسُبك سبكاً واحداً، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان، وأما قوله "كبعر الكبش" فإنما ذهب إلى أن بعر الكبش يقع متفرقاً غير مؤتلف ولا متجاور، وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر، تراها متفقةً مُلْساً وليّنة المعاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة، ومتنافرة مستكرهة، تشقّ على اللسان وتكدّه، والأخرى تراها سهلة ليّنة ورطبة مواتية، سلسة النظام، خفيفة على اللسان، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرفٌ واحد»[6]، إن هذا التأكيد على أهمية

[1] البيان والتبيين، ج1 ص138-139.

[2] P. Charaudeau et D. Maingueneau, Dictionnaire d'analyse du discours, P430-431.

[3] البيان والتبيين، ج1 ص113.

[4] نفسه، ص161-162.

[5] المصدر نفسه، ج1 ص88.

[6] المصدر نفسه، ج1 ص67. وهو تعليق على بيت لأبي البيداء الرياحي يقول فيه(نفسه ص66):

الترابط يتجسد في رأينا ضمن نظرة عامة تحاول أن تميّز الخطاب البياني وأن تضع له مجموعة من الخصائص تقابل ما يسمى الآن في الدراسات الحديثة بالشعرية(La poétique)، هذا وإن كان الجاحظ أثناء سعيه لإبراز خاصية النظم والائتلاف قد ركّز على الشعر أكثر من النثر إلا أنه لا تخلو هذه المميزات التي أظهرها من اهتمام بالغ بخاصية التلاحم والانسجام في الخطاب عموماً، وربما يندرج ضمن هذه الخاصية نصُه المعروف عن ثنائية اللفظ والمعنى الذي أورده في سياق تمييز اللغة الشعرية وفيه يقول: «وذهب الشيخ إلى استحسان المعنى، والمعاني مطروحةٌ في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدويّ والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخيّر اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعةٌ وضرب من النسيج وجنسٌ من التصوير»[1]، واللافت للنظر في نصوص الجاحظ أنّ محاولة إبراز الخصائص الفنية للقول المبين لم تكن تتعدّى الأحكام الذوقية العامة، والتي لم ترتق إلى التفسير الذي يستند إلى المعطيات اللغوية، غير أنّ فيها من الملاحظات الدقيقة ما يعدّ بحقٍّ اكتشافاً مبكراً لكثير من الآراء النقدية الحديثة، لذلك كانت محاولاته منصبة على ضرب من الاختيار للشواهد، وهو اختيار في أغلبه يحمل الكثير من الدلالة القصدية.

4-1: الإيجاز والإشارة:

تعكس هذه الخاصية البيانية أسلوباً في القول يمثل في رأينا أشد الخصائص ارتباطاً باللغة، إذ لما كانت الألفاظ معدودة منتهية والمعاني غير محدودة ولا منتهية، فقد أدرك الجاحظ أنّ البيان لا بدّ أن يتجاوز هذا النقص في التعبير عن المعاني باستخراج الطاقات الإيحائية وتفجيرها عبر التراكيب الموجزة والموحية، دون إخلالٍ بمبدأ الفهم والإفهام الذي يمثل الوظيفة الأولى المنوطة بالبيان، لذلك استعمل الجاحظ أيضاً مجموعة من الضوابط التي تحدّ من الإيجاز والإشارة لئلا يتجاوز الأمر فيها إلى الغموض واللبس في فهم المعاني، وهذا حفاظاً منه على مبدأ الاعتدال والتناسب. وقد أشار الجاحظ إلى هذه الخاصية في إطار الاعتدال والمحافظة على المقدار لذا يقول مثلاً: «والإيجاز ليس يعنى به قلة عدد الحروف واللفظ، وقد يكون الباب من الكلام من أتى عليه فيما يسع بطن طومار فقد أوجز، وكذلك الإطالة وإنما ينبغي له أن يحذف بقدر ما لا يكون سببا لإغلاقه، ولا يردّد وهو يكتفي في الإفهام بشطره، فما فضل عن المقدار فهو خطل»[2]، ونقل عن بعض الهنود تعريفهم للبلاغة بما يشير إلى أهمية الإيجاز فقال: «وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة، وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة، ثم قال:ومن البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة، أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها، إذا كان الإفصاح أوعر طريقة، وربما كان الإضراب عنها صفحا أبلغ في الدرك وأحق بالظفر»[3]، فهذا تركيز على الطاقة الإيحائية للغة والتي تجعل اتخاذها أسلوباً أوثق صلةً بالحجاج والإقناع من جهة، وأبلغ– من الناحية الفنية-من جهة ثانية. ولذلك قال صحار بن عياش العبدي حين سأله معاوية بن أبي سفيان «ما تعدّون البلاغة فيكم؟ قال: الإيجاز، قال له معاوية: وما الإيجاز؟ قال صحار: أن تجيب فلا تبطئ وتقول فلا تخطئ»[4]، وكأن معيار الإيجاز هو إصابة المقدار من القول فقط في غير تقصير ولا إطالة، ولهذا أيضاً ضرب الجاحظ المثال للرجل البليغ بثمامة بن أشرس لأنه لم يكن يعلم أحداً «بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد

وشعرٍ كبعر الكبش فرّق بينه لسانُ دعِيٍّ في القريض دخيلِ

[1] الحيوان، ج3 ص131-132.
[2] الحيوان، ج1 ص91.
[3] البيان والتبيين، ج1 ص88.
[4] نفسه ص96.

الحروف، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف، ما كان بلغه، وكان لفظه في وزن إشارته، ومعناه في طبقة لفظه، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك»[1]، والتركيز على هذه الخاصية لدى الجاحظ يتجلى في أدائها كما أشرنا من قبل لوظيفتين من وظائف البيان معاً فهي من جهة أولى الغاية في البلاغة والبيان وفي هذا تأكيد على وظيفة الإفهام، ومن جهة ثانية تأكيد على وظيفة الإقناع بما هي ناتج عملية استدلالية قائمة على فعل لغوي مركّز.

إنّ النظر في خصائص مفهوم البيان تقرّب في رأينا نظرة الجاحظ إلى البيان باعتباره وسيلة لإظهار الحقائق والكشف عنها، ويندرج هذا ضمن توجّه عامٍ ينشد الإقناع ويسعى إليه، لذلك لاحظنا أن التزاوج بين البيان اللغوي باعتباره وسيلة معرفية وبين المنفعة المرجوة فيه ظل تصوراً طاغياً على كل مشاغل الجاحظ في مبحث البيان، وكأنه لا وجود لبيان بليغ وجميل إن لم يحمل شيئاً من المنفعة للمتلقي ومن الأثر فيه. ولعل هذه النقطة من البحث تدعونا إلى التساؤل عن الوظائف المنوطة بالبيان وفق هذا التصور واستناداً إلى هذه الخصائص.

2- وظائف البيان:

إنّ النظر في الوظائف التي يؤدّيها الخطاب البياني هو نظرٌ في فائدة الخطاب ونفعه بدرجةٍ أولى، وقد تميز الجاحظ بكونه صاحب نظرة نفعية(براغماتية) من هذا الجانب إذ لم يكن يهتم بالكلام البليغ لأنه جميل فقط بل لأنه يحمل الفائدة وتتجلى فيه المنفعة "ومن ثمّ انطبعت محاولته بطابع نفعي واضح يمكن أن يعدّ، بدون مبالغة، أكمل محاولةٍ في التراث اللغوي العربي لتأسيس ما يسمى "نفعية الخطاب"، ومن هذا المورد استقى تصوره الجمالي فكان الجميل ينبع من النافع"[2]، إذ ليست الوظائف المقصودة بالنظر هنا منحصرة فيما تعكسه اللغة البيانية بل إن النظر يتعدى ذلك إلى البحث في أثر اللغة في المتلقي والمقام، ويعدّ هذا في اعتبارنا تركيزاً على البعد التداولي للخطاب البياني بل ويأتي انطلاقاً من كون الخطاب فاعلاً في مقامه التواصلي، ولقد أشار الأستاذ محمد العمري إلى إمكان إرجاع وظائف البيان من خلال كتابات الجاحظ[3] إلى ثلاث وظائف أساسية هي:

1- الوظيفة الإخبارية المعرفية التعليمية وفيها يقصد صاحب الخطاب إظهار الأمر على وجه الإخبار قصد الإفهام ويسميها حالة الحياد.

2- الوظيفة التأثيرية وفيها يقصد تقديم الأمر على وجه الاستمالة وخلب القلوب ويسميها حالة الاختلاف.

3- الوظيفة الحجاجية، وفيها يقصد إظهار الأمر على وجه الاحتجاج والاضطرار ويسميها حالة الخصام[4]. ويضيف الأستاذ العمري في ملاحظة دقيقة أنّ اهتمام الجاحظ كان مرتكزا على الوظيفة الثانية بشكل لافت للنظر ودون أن تصل الوظيفتان الأولى والثالثة إلى درجة الظهور كغرض مستهدف توضع له آليات مضبوطة[5]، وتلفت ملاحظة الأستاذ العمري الانتباه إلى ما أوْلاهُ الجاحظ للخطابة باعتبارها نوعاً من أنواع البيان، من خلال تركيزه على أداء البيان للوظيفة التأثيرية

[1] نفسه، ص111.

[2] حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص300-301.

[3] تجدر الإشارة إلى أن الأستاذ محمد العمري قد قارن في سياق إيراده لهذه الوظائف بين تصور الجاحظ للبيان وبين تصور ابن وهب (ت272هـ) للبيان في كتابه "البرهان في وجوه البيان"، انظر الكتاب وقد نشِر خطأً تحت اسم "نقد النثر" لقدامة بن جعفر، ثم تمّ تصحيح نسبته لابن وهب ونشِر في بغداد بتحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، 1967.وانظر:شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، مصر، ط12، 2003، ص93 وما بعدها.

[4] ينظر: محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط1، 1999.ص212-213.

[5] نفسه ص213.

التي يمكن للخطيب بها التأثير على جمهور المتلقّين له، كما أنّ مقاييس الاهتمام بتأثير الخطبة في المتلقّين عند الجاحظ تعدّت الملاحظات العامّة إلى خوضٍ في أهمّ مميّزات البيان الخطابي مما نحن في غنىً عن الإشارة إليه ههنا[1]، وفيما يلي أهمّ الوظائف التي رأينا أبا عثمان يربط البيان بها، وقد تنبّه الأستاذ حمادي صمود إلى أنّ التعبير عن الوظيفة لدى الجاحظ يأتي بصيغتين اصطلاحيتين هما "الغاية" و"مدار الأمر"[2]، لكنّ ذلك لا يحدّ من تصوّر الوظيفة لديه، إذ قد نجد لها الكثير من التعابير.

2-1: الفهم والإفهام:

يشير الجاحظ في تعريفه للبيان، والذي نقلناه سابقاً، إلى وظيفة الإفهام بشكل جليّ، وهو تعريف لا يقتصر الأمر فيه على البيان اللغوي فقط، بل يضمّ كلّ أنواع البيان، إذ يقول: «والبيان اسمٌ جامعٌ لكلّ شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أيّ جنسٍ كان الدليل، لأنّ مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنّما هو الفهم والإفهام، فبأيّ شيءٍ بلغْتَ الإفهَامَ وأَوضحْتَ عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع»[3]، فهذه الوظيفة لا تنفكّ عن التصوّر الذي يستبطنه الجاحظ من كون المعاني مستقلّة في الوجود، ومنفكّة عن الألفاظ، لذلك فإنّ التعبير عن المعاني يتّخذ طريقة الكشف والإيضاح، حتّى تصير المعاني ظاهرةً وجلية بعد خفائها في نفس المتكلم، غير أنّ الداعي إلى التعبير يرجع كما أكدته اللسانيات الحديثة إلى الطابع الاجتماعي، والحاجة الماسة لدى الإنسان إلى التواصل مع أبناء جنسه، ولا نعدم لدى الجاحظ إشارةً إلى هذا التصوّر الاجتماعي الذي يتنزل فيه البيان منزلة الحاجة الطبيعية التي جبل اللهُ الإنسانَ عليها:«وقال الله تبارك وتعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ لأنَّ مدار الأمر على البيان والتبيّن وعلى الإفهام والتفهّم»[4]، «ولأنّ من طبع الإنسان محبّة الإخبار والاستخبار، وبهذه الجبلّة التي جبل عليها الناس نقلت الأخبار عن الماضين إلى الباقين، وعن الغائب إلى الشاهد، وأحبّ الناس أن ينقل عنهم»[5] غير أنّ ما يميّز تصوّر الجاحظ لوظيفة الإفهام هو انبناؤها على المنفعة، وقيامها على الإفادة، لذلك كان يرى في الكلام البليغ والجميل كلاماً قادراً على النفع لأنّ «مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكلّ مقام من المقال»[6]، وقد ربط الجاحظ في سياقات عديدة بين البلاغة وبين الوظيفة التواصلية حتّى كان تعريفها ينزل إلى حدّ أداء الوظيفة فقط، وإن كان في ذلك تبسيط على حساب الاهتمام بصورة الكلام: «فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك، إلى أن تفهم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكفاء، فأنت البليغ التام»[7]، بل إنّه «يكفي من حظّ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا

[1] نحيل إلى الملاحظات القيمة التي خصصها الأستاذ حمادي صمود لمقام الخطبة في دراسة فكر الجاحظ البلاغي، ينظر: حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص233-249.

[2] التفكير البلاغي عند العرب، ص185.

[3] البيان والتبيين، ج1 ص76.

[4] نفسه ص11.

[5] الجاحظ، رسالة كتمان السر وحفظ اللسان، ضمن: رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1964/1384، ج1 ص143.وينظر نص شبيهٌ بهذا في: الحيوان، ج1 ص33 وما بعدها.

[6] البيان والتبيين، ج1 ص136.

[7] نفس المصدر والصفحة.

يؤتى الناطق من سوء فهم السامع»[1]، ومثل هذا التصور التبسيطي لوظيفة البيان لا يخلو من نفعية مغرقة في النفع، ولهذا أيضاً لم نجد الجاحظ يركّز مثل غيره من البلغاء والبيانيين الذين جاءوا من بعده على الوظيفة الجمالية بعيداً عن نفعيّتها، ومن أهمّ ركائز النفعية في نظرنا اهتمامه أيضا بوظيفة أخرى مزاوجةٍ لوظيفة الإفهام، هي وظيفة الإقناع والتأثير.

2-2: الإقناع والتأثير:

إنّ حضور هذه الوظيفة في تصوّر الجاحظ لم يقتصر على إبراز أهمّيتها في الخطاب البياني، بل تجاوزه في نظرنا إلى إبرازها بالفعل من خلال تنوّع استعمالاته للبيان اللغوي في سبيل إبراز أفكاره والدفاع عنها وتوضيحها بالحجج والبراهين، وهذا ما لاحظنا وجوده عبر كتبه العديدة ومن بينها الرسائل، وليست هذه الوظيفة منفكّة عن البيان عنده، بل هي ركيزة من ركائز المفهوم، فالبيان عنده إقناع وتأثير، وهذا ما يجعلنا نتكلّم عن سبقٍ جاحظي متميّز ليس في طرح فكرة الحجاج باللغة فقط، بل إن السبق يتجلّى في نظرنا من خلال طرح الأثر الإقناعي للبيان اللغوي، وهو ما لم يكن شائعا في دراسات السابقين، ولا في دراسات المحدثين إلّا بعد ظهور الدراسات المعاصرة في الحجاج، ويظهر هذا السبق بشكل جلي إذا حاولنا استنطاق بعض نصوص الجاحظ في البيان والتبيين، أو في غيره من الكتب التي ارتبط البيان فيها بأداء وظيفة الإقناع، ومن بين تلك النصوص نقله لتعريف بعض الهنود للبلاغة بأنها «وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة، وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة البصر بالحجّة، والمعرفة بمواضع الفرصة، ثم قال: ومن البصر بالحجّة والمعرفة بمواضع الفرصة، أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها، إذا كان الإفصاح أوعر طريقة، وربما كان الإضراب عنها صفحا أبلغ في الدرك وأحق بالظفر»[2]، فهذا التعريف يركّز بشكل واضح على بعدٍ مهمٍّ من أبعاد الحجاج، وهو الخاصية الاستدلالية التي تعتمد على الإشارة، وقوامها التلميح في إيراد الحجج، وقد وُجد لديه تركيز على الإفصاح أيضاً، بل قد ارتبط الإفصاح في بعض النصوص بإدراك الحجج وأساليب الإقناع، وهذا في قوله مثلاً:«وسأل الله عز وجلّ موسى بن عمران عليه السلام، حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته والإبانة عن حجّته والإفصاح عن أدلّته، ...،وقال موسى صلى الله عليه وسلم:﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدًا يُصَدِّقْنِي﴾ وقال:﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ رغبةً منه في غاية الإفصاح بالحجة، والمبالغة في وضوح الدلالة، لتكون الأعناق إليه أميل، والعقول عنه أفهم، والنفوس إليه أسرع، وإن كان قد يأتي من وراء الحاجة، ويبلغ أفهامهم على بعض المشقة»[3]، والتركيز على الإقناع لا ينفكّ عن النظر إلى أثر البيان بالحجج في نفوس المتلقين، فقد عبّر عنها الجاحظ في النص السابق بقوله" لتكون الأعناق إليه أميل، والعقول عنه أفهم، والنفوس إليه أسرع"، ونحن لا نعدم في إشارات الجاحظ إلى هذه الوظيفة التي يؤديها البيان بعضاً من إحالاته على المرجعية المذهبية التي استند إليها تصوّره المعرفي، والمقصود بها آراء المتكلمين من المعتزلة، فقد نقل إلينا الجاحظ بعضاً من تلك الآراء، على سبيل اقتناعه بها، عن رأس من رؤوس الفرقة هو عمرو بن عبيد، فقد نقل إجابته عن سؤال يريد به سائلُه تعريفاً للبلاغة، ومن بين ما أتى في النص قوله: «فكأنك إنّما تريد تخيّر اللفظ في حسن الإفهام؟ قال:نعم، قال: إنّك إن أوتيت تقرير حجة الله في عقول المكلّفين، وتخفيف المؤونة على المستمعين، وتزيين تلك المعاني في قلوب المريدين، بالألفاظ المستحسنة في الآذان، المقبولة عند الأذهان، رغبةً في سرعة استجابتهم، ونفي الشواغل عن قلوبهم، بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة، كنت قد أوتيت فصل الخطاب، واستوجبْتَ على الله جزيل

[1] البيان والتبيين، ج1 ص87.وقد علّق الجاحظ على هذا التعريف قائلاً: "أمّا أنا فأستحسن هذا القول جدّاً".
[2] البيان والتبيين، ج1 ص88.
[3] المصدر نفسه، ج1 ص7.

الثواب»[1]، وربط البلاغة بهذا الهدف التأثيري في نفوس المتلقّين كما بيّنه عمرو بن عبيد ليس إلّا وجهاً من وجوه الوظيفة الإقناعية التي يقوم بها البيان، وإن كنّا نلاحظ مدى تأثير المقام الخطابي على هذا التعريف للبلاغة، إلّا أنّه تأثير فرضته المرحلة التي نشأت فيها أولى الملاحظات البلاغية ومن بينها مقولة عمرو بن عبيد، والأمر الجدير بالملاحظة كذلك في هذه المقولة هو ربط أداء الخطاب البياني والتأثير في المتلقّين بوظيفة دينية، لم تخلُ منها ملاحظات البلاغيين بعد الجاحظ، فيصبح الداعي إلى أداء البيان داعياً دينياً وأخلاقياً، وهو ما يُظهر الجانب النفعي المرجوّ من البلاغة[2].

ولعل في تنبهنا على أثر المقام الشفهي الذي نشأت فيه الخطابة العربية، ما يعلّل سبب توجّه البلاغة لدى أبي عثمان هذا التوجّه الذي يتوخّى التأثير في المتلقي، ولكنّ الأمر الجدير بالملاحظة كذلك أنّ الجاحظ قد نقل هذا التصور التأثيري لمقام المشافهة الخطابية إلى مقام المكاتبة، فقدّم لنا بعض النماذج البيانية المكتوبة التي أثّرت في المتلقي.

قائمة المصادروالمراجع:

-الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) ، **البيان والتبيين**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1968/1388.

-الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) ، **كتاب الحيوان**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، مصر، ط2، 1385/ 1965.

-الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)، **رسائل الجاحظ**، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991/1411.

-صمود (حمادي)، **التفكير البلاغي عند العرب، أسسه وتطوره إلى القرن السادس**، منشورات الجامعة التونسية، تونس، ط1، 1981.

-ضيف (شوقي)، **البلاغة تطوروتاريخ**، دار المعارف، مصر، ط9، 1995.

-العمري (محمد) ، **البلاغة العربية أصولها وامتداداتها**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء. المغرب، ط1، 1999.

-الودرني (أحمد)، **قضية اللفظ والمعنى ونظرية الشعرعند العرب**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2004/1424.

- Charaudeau (Patrick) et Maingueneau (Dominique), **Dictionnaire d'analyse du discours**, Edition de Seuil, Paris, 2002.

- Dubois (Jean) et Autres**, Dictionnaire de linguistique**, Larousse, Paris, 2001.

- Perelman (Chaïm) et Olbrechts-Tyteca (Lucie), **Traité de l'argumentation**, **La nouvelle rhétorique**, Editions de l'université de Bruxelles, Belgique, 6 édition, 2008.

[1] البيان والتبيين، ج1 ص 114.

[2] شبيه بهذا التصور النفعي التأثيري للحجاج ما كتبه "بيرلمان وتيتيكا" حيث يعرّفان الحجاج الناجح بأنه كلّ حجاج «ينجح في زيادة حدّة الإذعان لدى السامعين بشكل يحفّزهم على العمل المطلوب (فعله أو الامتناع عنه)، أو يخلق لديهم بدرجة أقلّ تهيئة للعمل ليقوموا به في اللحظة المناسبة» انظر:

Ch.Perelman et L.Olbrechts.Tyteca, Traité de l'argumentation, p 59.